مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ١

حيل ومكائد النصارى الاسبان قُبيل سقوط سلطنة غرناطة
(٨٧٤-٨٩٧هـ/١٤٦٩-١٤٩٢م)

م.د. مهند عبد رحيم
جامعة سامراء
كلية التربية/ قسم التاريخ

البريد الإلكتروني Email : Mohnad.Abdulraheem@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: ملك قشتالة وأراغون، سلطنة غرناطة، الحيل والمكائد، فرديناند وايزابيلا، ابن كماشة.

كيفية اقتباس البحث

رحيم ، مهند عبد، حيل ومكائد النصارى الاسبان قُبيل سقوط سلطنة غرناطة(٨٧٤-٨٩٧هـ/١٤٦٩-١٤٩٢م)، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، كانون الثاني ٢٠٢٦،المجلد:١٦ ،العدد:١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The tricks and schemes of the Spanish Christians before the fall of the Sultanate of Granada (874-897 AH/1469-1492 AD)

Dr. Muhanad Abd Raheem
University of Samarra

Keywords : King of Castile and Aragon, Sultanate of Granada, tricks and intrigues, Ferdinand and Isabella, Ibn Kmasha.

How To Cite This Article
Raheem, Muhanad Abd , The tricks and schemes of the Spanish Christians before the fall of the Sultanate of Granada (874-897 AH/1469-1492 AD),Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, January 2026,Volume:16,Issue 1.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract :

Importance: The importance of this topic comes from its relationship to the bitter reality we live in today of negligence, indifference and inattention to the forms of deceit and plotting intended for us, our society and our religion by our enemies, and the extent of the similarity between what Andalusia went through during that period of conflict and disagreement ,What it has come to in terms of downfall, fragmentation and loss, and what our Islamic nation is going through today is almost very similar. As for the research method, I relied on the descriptive method in narrating historical events .As for the difficulties I encountered, they lie in the scarcity of Arabic sources that addressed this critical phase in the history of the Islamic presence in Andalusia. Most of the information provided about that era came from foreign or translated sources, in addition to the great similarity between that information from one source to another.

This research consists of an introduction, two chapters, and a conclusion. The first chapter includes: tricks and plots in language and terminology. The second chapter also touched on the tricks and plots of

the Spanish Christians before the fall of Granada. The conclusion came to shed light on the most prominent results that the research reached, which are: that the nation is Aware and cognizant of the intrigues and conspiracies surrounding it, and the plots being planned to undermine it by various means by adopting slogans of liberation, granting rights, and coexistence, while in reality, they lead to dissolution, deviation, conflict, and division of society.

الملخص

الاهمية: تأتي أهمية هذا الموضوع من خلال علاقته بالواقع المرير الذي نعيشه اليوم من الغفلة وعدم المبالاة واليقظة لما يُراد بنا وبمجتمعنا وديننا من صور المكر والمكيدة من أعدائنا، ومدى التطابق بين ما مرت به الاندلس خلال تلك المرحلة من التنازع والاختلاف، وما آلت اليه من السقوط والتشرذم والضياع، وبين ما تمر به أمتنا الاسلامية اليوم يكاد يكون متشابهاً الى حد كبير، أما بالنسبة **لمنهج البحث** اعتمدت فيه على المنهج الوصفي في سرد الأحداث التاريخية، أما بالنسبة للصعوبات التي مررت بها فإنها تكمن في قلة المصادر العربية التي تطرقت الى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الوجود الاسلامي في الاندلس، فاغلب المعلومات التي وردت عن تلك الحقبة كانت عن طريق المراجع الاجنبية أو المترجمة، فضلاً عن التشابه الكبير بين تلك المعلومات من مرجع لآخر.

يتكون هذا البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، تضمن **المبحث الاول:** الحيل والمكائد لغةً واصطلاحاً، كما تطرق **المبحث الثاني** الى حيل ومكائد النصارى الاسبان قبيل سقوط غرناطة، وجاءت الخاتمة لتسلط الضوء على أبرز النتائج التي توصل اليها البحث وهي : ان تكون الأمة واعية ومدركة لما يحيط بها من دسائس ومؤامرات، وما يُخطط لها من مكائد للنيل منها بوسائل شتى من خلال تبني شعارات التحرر ومنح الحقوق والتعايش وباطنها التحلل والانحراف والتناحر وتقسيم المجتمع.

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وسلم تسليماً كثيراً وبعد.

ان أهمية هذا الموضوع تأتي من خلال صلته بالواقع المعاصر الذي نعيشه اليوم ومدى التطابق بين ما مرت به الاندلس خلال تلك المرحلة وبين ما يمر به عالمنا العربي والاسلامي من تخلف وتخاذل وتراجع.

يُعد موضوع **حيل ومكائد النصارى الاسبان قُبيل سقوط سلطنة غرناطة(٨٧٤-٨٩٧هـ /١٤٦٩-١٤٩٢م)** من المواضيع المهمة لما له من علاقة وثيقة بواقعنا الحاضر، للتنبه عما يُحيط بنا من مخططات ومؤامرات يُراد منها النيل من كل إرادة صلبة، وإبقاء المجتمع الاسلامي في حالة من التراجع والتخلف، وإيقاعه في شرَك ومكائد الاعداء.

أما بالنسبة **لمنهج البحث** اعتمدت فيه على المنهج الوصفي في سرد الأحداث التاريخية، أما بالنسبة للصعوبات التي مررت بها فإنها تكمن في قلة المصادر التي تحدثت عن تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الاندلس، والاعتماد على المراجع التي استقت معلوماتها عن مصادر ومراجع أجنبية في الكثير من الاحداث، فضلاً عن تشابه تلك المعلومات من مرجع لآخر.

يتألف هذا البحث مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، تضمن **التمهيد:** الحيل والمكائد لغةً واصطلاحاً، تطرق **المبحث الأول** الى بث الفرقة وتأجيج الصراعات الداخلية بين المسلمين، كما تضمن **المبحث الثاني:** نقض العهود والمواثيق مع المسلمين، وقيامهم بشراء ذمم بعض ضعاف النفوس من الامراء والوزراء والعلماء، وجاءت الخاتمة لذكر أبرز النتائج التي توصل اليها البحث.

اعتمدت في هذا البحث على عدد من المصادر والمراجع أهمها :

كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد المقري الذي يُعد من أمثر المصادر تغطية لتلك المرحلة من تاريخ الاندلس، فضلاً عن كتاب آخر أخبار غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول (٩٠٠ - ١٠٠٠م)، اضافة الى عدد من المراجع المهمة منها كتاب دولة الاسلام في الاندلس لمحمد عبد الله عنان، وكتاب محنة العرب في الاندلس لأسعد حومد، وكتاب الامة الاندلسية الشهيدة تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة لعادل سعيد بشتاوي، وكتاب الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية لشكيب أرسلان، إضافة الى عدد من المراجع الانكليزية

المترجمة منها كتاب أخبار سقوط غرناطة لواشنطن إيرفنج، ترجمة هاني يحيى النصري، وكتاب الاندلس لـ ج. س. كولان ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون وغيرها من المراجع.

التمهيد: الحِيل والمكائد لغةً واصطلاحاً

أولاً: الحِيَل لغةً:

الحِيَل: جمع حِيلَة، والحَيلَةُ اسم من الاحْتِيالِ، كالحَيلِ والحَولِ والحَولَةِ، وأصلُه الواو، وإنما انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، والحَولَةُ والحِيلَةُ والحَويلُ والمَحالَةُ والمَحالُ والإحتيال والتحَولُ والتحَيلُ: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف، والحِوَلُ والحِيَلُ والحِيلاتُ: جُموع حِيلَة، ورجُل حُوَل: شديدُ الاحتيالِ، وما أحوَلَهُ وأحيَلَهُ وهو أحوَلُ منكَ وأحيَلُ منه، أي أكثر حيلة، وما أحيَلَهُ لغة في ما أحوَله ويقال ما له حيلة ولا مَحَالَة ولا احتِيَال ولا مَحَالٌ بمعنى واحد،، والحيلة: مَفْعلة أَيضاً من الحول والقوَّة (الفيروز أبادي، ٢٠٠٥م، ص٩٩٠؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١١،ص١٠٧٣).

وعرفها المناوي بأنها: ما يتوصل به إلى حالة ما في خفية وأكثر استعماله فيما في تعاطيه خبث، وقد يستعمل فيما فيه حكمة والحيلة من التحول لأن بها يتحول من حال إلى حال بنوع تدبير ولطف، ويحيل بها الشيء عن ظاهره(المناوي، ١٩٩٠م ،ص٣٠٣)، وعليه فقد عرفها الجرجاني بقوله: الحيلة اسم من الاحتيال، وهي التي تحول المرء عما يكرهه إلى ما يحبه(الجرجاني، ١٩٨٥م، ص١٠٠).

ثانياً: الحيل اصطلاحاً :

عرف ابن قدامة المقدسي الحيل بقوله: (أن يظهر عقداً مباحاً يريد به محرماً، مخادعة وتوسلاً إلى فعل ما حرم الله، واستباحة المحظورات، أو إسقاط واجب، أو دفع حق، ونحو ذلك)(المغني، ١٩٦٨م، ص٤٣).

ويعرفها ابن القيم الجوزية بقوله:(فالحيلة هي نوع مخصوص من التصرف والعمل الذي يتحول به فاعله من حال إلى حال، ثم غلب عليها، أي- الحيلة- بالعرف استعمالها في سلوك الطرق الخفية التي يتوصل بها الرجل الى حصول غرضه بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة، وسواء كان المقصود أمرا جائزا أو محرماً(اعلام الموقعين، ج٣، ص١٨٨).

وعرفها ابن حجر العسقلاني: هي ما يتوصل به الى مقصود بطريق خفي ، وهي عند العلماء على أقسام بحسب الحامل عليها، فإن توصل بها بطريق مباح إلى إبطال حق أو إثبات باطل فهي حرام أو إلى إثبات حق أو دفع باطل فهي واجبة أو مستحبة، وإن توصل بها بطريق مباح

إلى سلامة من وقوع في مكروه فهي مستحبة أو مباحة، أو إلى ترك مندوب فهي مكروهة (فتح الباري، ج١٢، ص٣٢٦).

ان تعريف ابن القيم وابن حجر(رحمهما الله) للحيل يُعد تعريفاً جامعاً مانعاً، وقد شمل جميع أقسام الحيل بنوعيها (الشرعية وغير الشرعية) ، فكان تعريفهما هو الأنسب والأشمل، وتعريف ابن القيم هو التعريف الأدق والأرجح لبيان معنى الحيل لأنه استوعب أقسام الحيل، بغض النظر عن كونها مشروعة أو غير مشروعة، فالذي يحدد حكمها هو مقصدها، إن كان جائزاً فهي جائزة ومشروعة، وإن كان غير جائز فهي غير مشروعة ومحرمة.

المبحث الأول

بث الفرقة وتأجيج الصراعات الداخلية

عمل النصارى الاسبان بعد اتحاد مملكتي قشتالة واراغون سنة ٨٧٤هـ/١٣٦٩م نتيجة زواج ملك اراغون فرديناند المعروف بالمكر والغدر من ايزابيلا ملكة قشتالة المعروفة بتعصبها الكبير للكاثوليكية وخضوعها لتأثير رجال دين متعصبين، الى توسيع حدة الخلافات والانقسامات الداخلية بين المسلمين في غرناطة، وبذلوا كل جهودهم من أجل ديمومة تلك الصراعات، ودعم طرف ضد آخر لاستنزاف قوتهم وإضعافهم، ومن ثم خضوعهم للنصارى الاسبان(عبد الحكيم الذنون، ١٩٨٨م، ص٤٥ ؛ عبد الواحد طه ذنون، ٢٠٠٤م، ص٨ نقلاً عن

Mackay,Spain in the Middle Ages, London,1997,p.205

ان أولى صور المكر والمكيدة التي اتبعها النصارى الاسبان في السيطرة على سلطنة غرناطة هي بث الفرقة والاختلاف والتنازع بين المسلمين ودعم الطرف الضعيف على الآخر، في محاولة لإضعاف الطرفين معاً واستنزاف قوتهم، فضلاً عن تنازلهم عن العديد من الحصون والقلاع المهمة مقابل ذلك الدعم، الى جانب فرض الجزية عليهم لإضعافهم اقتصادياً، تمهيداً للسيطرة عليهم.

ومن الشواهد على ذلك ما حدث في سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦ م بين أمير البيازين محمد بن علي، وبين أمير غرناطة محمد بن سعد، اذ نشبت الحرب بين الطرفين وصار بعضهم يقتل بعضاً ... فتدخل ملك قشتالة وقام بدعم أمير البيازين ضد صاحب غرناطة، وهذا ما ذكره صاحب نبذة العصر بقوله: (ثم ان العدو دمره الله أمد امير البيازين بالرجال والانفاط والبارود والقمح والعلف والبهائم والذهب والفضة، وغير ذلك ليشد به عضد الفتنة ويقوي الشر، ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين) (مؤلف مجهول، ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢١).

عمل النصارى الاسبان على اتباع سياسة قائمة على الترغيب تارة وعلى الترهيب تارة أخرى للوصول الى هدفهم الرئيسي في تحجيم النفوذ الاسلامي في الاندلس، والسيطرة على المدن الاسلامية الواحدة تلو الاخرى، ووضعت العديد من الخطط بهذا الخصوص لتحقيق ذلك، ومن تلك السياسات ما صرح به ملك قشتالة وأراغون فرديناند مخاطباً يحيى النجار، صهر أبو عبد الله محمد المعروف بـ الزغل (الشجاع الباسل) قائلاً: ((إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية على ان تخدمني وتعاونني برجالك، فغني سوف أكتم ذلك طوال مدة الفتح حتى لا يتقول عليك رجالك، وسأصحب لك الكروم الى القرى والحصون التي تؤول اليك بالميراث عن والدك أمير المرية، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء، وعهدي لك بذلك أنا والملكة زوجي ولن تدفع أنت وأبنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي الى الأبد، وانه اذا تنازل صهرك ملك وادي اش عن نصف الملاحات التي أهبها اليه، فإني أهبك دخلاً قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدي، فضلاً عن ذلك فإنه اذا تم تسليم وادي أش في الموعد المتفق عليه، فإني مكافأ لك على جهودك في خدمتي لدى ملك وادي أش وغيره من القادة، أهبك عشرة آلاف مرافيدي، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم)) (مؤلف مجهول،٢٠٠٢م، ص٨٦؛ المقري،١٩٨٨م،ج٤، ص٥٢٢؛ عنان،١٩٩٧م،ج٤، ص٢٢٦)، وبالفعل سعى قائد بسطة يحيى النجار وبذل قصارة جهده لدى صهره الزغل واستطاع اقناعه بالدخول في طاعة ملك قشتالة فرديناند وتسليمه منطقة وادي آش(مؤلف مجهول،٢٠٠٢م، ص٨٦؛ حبيب، ٢٠٠٢م، ص١٨٤).

تكللت مساعي صاحب بسطة يحيى النجار بالنجاح، اذ التقى الزغل بملك قشتالة فرديناند، وعرض عليه الدخول في طاعته مقابل بعض الامتيازات التي منحها إياه، فوافق الزغل على الدخول في طاعته وتسليمه جميع المدن والقصبات الخاضعة تحت سيطرته(دوشاتو بريان،١٩٢٥م، ص٣٠٥)، وجاء في نفح الطيب: (ونزل صاحب وادي آش للمرية ليلقاه بها، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والمروج، وبايع له السلطان أبو عبد الله الزغل على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب فوعده بذلك، وانصرف معه الى وادي آش، ومكنه من قلعتها... وأطاعته جميع البلاد سوى غرناطة وضواحيها، وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار بيد النصارى الاسبان(مؤلف مجهول،٢٠٠٢م، ص٢٧؛ طقوش،٢٠١٠م، ص٦١١).

بعد سيطرة النصارى الاسبان على المناطق الخاضعة للزغل، وجهوا أنظارهم واهتمامهم صوب سلطنة غرناطة (وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش، وأباح الكلام بالسوء في

حق صاحب غرناطة مكراً منه وخداعاً ودهاءً، ثم أرسل الى صاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء، كما مكنه عمه من القلاع والحصون، ويكون تحت إيالته) (السخاوي، ١٩٩٥م،ج٣، ص١١٥٠؛ المقري، ١٩٨٨م، ج٤، ص٥٢٢؛ أرسلان ،١٩٣٦م، ص٢٤٨ ؛ حبيب، ٢٠٠٢م، ص١٨٦).

ومن صور الحيل والمكيدة التي استخدمها النصارى الاسبان في الاندلس هي نشر العيون والجواسيس لكشف الخطط التي اعتمدها القادة المسلمون في الدفاع عن مدنهم، فعندما حاصر ملك قشتالة فرديناند مدينة بلش، فخرج الزغل على رأس جيش كبير لكسر الحصار عن المدينة، وكانت خطته ان يثبت المحاصرون في المدينة من الداخل، وأن يقوم هو بجيشه مفاجأة جيوش ملك قشتالة وأراغون من الخارج، ولكن ملك قشتالة وأراغون كشف خطته، وهاجمه أثناء الليل وتغلب على قوات الزغل مما اضطرها ان تعود أدراجها نحو غرناطة تاركة المدينة تواجه مصيرها المحتوم وتسقط بيد النصارى الاسبان(المقري،١٩٨٨م، ج٤، ص ٥١٤-٥١٥؛ الجارم، ١٩٤٤م، ص٢٠٣-٢٠٤).

ومن وسائل الحيل والخداع التي استخدمها النصارى الاسبان في الاندلس أواخر عصر سلطنة غرناطة قيامهم بأسر سلطان غرناطة ابو عبد الله الصغير سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، واستخدامه كورقة ضغط على المسلمين في غرناطة، وبث الفرقة والاختلاف بين صفوف المسلمين إذ أصبح في غرناطة سلطانان أحدهما: الزغل والآخر ابن أخيه الذي أطلق سراحه ملك قشتالة بعد توقيعه لمعاهدة سرية معه يتم بموجبها تسليم مدينة غرناطة للنصارى الاسبان(المقري،١٩٨٨م، ج٤، ص٥١٥؛ عنان، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٠٤؛ الجارم، ١٩٤٤م، ص٢٠٠-٢٠٢)، تلخصت اهم بنودها : ان يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرديناند وزوجته ايزابيلا، وان يدفع لهما جزية سنوية قدرها غثنا عشر دوبلاً من الذهب، وان يُفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثم يطلق بعد ذلك في كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة اعوام، وأن يقدم ابو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الامراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه، وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما، بالأفراج عن أبي عبد الله فوراً، والا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الاسلامية، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه المدن متى تم فتحها تغدوا واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وان تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الافراج عن السلطان الاسير(عنان، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٠٥ نقلاً عن المستشرق .

المبحث الثاني

نقض العهود والمواثيق مع المسلمين

ومن صور المكر والمكيدة التي عمل عليها النصارى الاسبان هو عدم احترام الوعود والعهود التي أبرموها مع المسلمين، ففي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م قام ملك قشتالة بنقض الصلح مع الحصون الشرقية لمدينة مالقا واستولى عليها غدراً ومكراً من غير قتال ولا حصار وصارت جميع تلك الحصون في قبضته(مؤلف مجهول، ٢٠٠٢م، ص٢٥)، فضلاً عن عدم الالتزام بوعودهم التي قطعوها للمسلمين مقابل تسليم مدينة غرناطة والتنصل عنها تدريجياً ومن تلك الوعود ما جاء في تلك المعاهدة التي أوردها المقري: (وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها :تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا، وأن، لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصا أعيانا نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره، بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع

للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره (نفح الطيب،ج٤، ص ٥٢٥-٥٢٦ ؛ عنان، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٤٥-٢٥٠ ويجعلها ٥٦ مادة، ورجع في ترجمة نصوص المعاهدة الى وثيقتين: الاولى: وثيقة محفوظة بدار المخطوطات العامة في سيمانقا ARCHIVO general de Simancas وتحمل رقم P.R.11-207

والثانية: الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دي ثافرا ببلدية غرناطة أمين الملكين الكاثوليكيين وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة وتحمل رقم 259-P.269).

لم تكن بنود المعاهدة التي عقدها ملك قشتالة وأراغون هي العامل المهم في عدم الاستحواذ على اراضي مملكة غرناطة، وانما كان الهدف من ذلك هو الاستفادة من خبرة الفلاحين المسلمين في زراعة تلك الاراضي مما يوفر لهم مصدر دخل ثابت من خلال فرض ضرائب على تلك المحاصيل لتسديد الاموال التي اقترضها الملكان في تمويل حربهما على غرناطة من جهة، وتجنباً لما حدث في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من تحول الاراضي الخصبة الى خراب لم تعد تصلح سوى للرعي بعد طرد المزارعين المسلمين من مناطق بلنسية ومرسية، لذلك عمل ملكي قشتالة وارغون على خرق بنود معاهدة التسليم وفق ما يتناسب مع رغباتهم وتطلعاتهم، ومن تلك الحيل هي تنصير مسلمي غرناطة من خلال السياسة التي اعتمدها رئيس أساقفة غرناطة هرناندو طلبيرة، لكن الأندلسيين لم يتنصروا ولم يكن ثمة تحولهم الى رعايا مخلصين لملكي قشتالة وأراغون وبدأ صبرهما ينفذ وانتقاد طلبيرة، وطالبوه بانتهاج سياسة أكثر حزماً ضد المسلمين لإجبارهم على ترك الاسلام واعتناق النصرانية(بشتاوي، ٢٠٠١م، ص١٠٨-١٠٩).

ومن وسائل المكر والمكيدة التي اعتمدها النصارى الاسبان في الاندلس خلال عصر سلطنة غرناطة قيامهم بإغراء بعض ضعاف النفوس والوزراء والفقهاء والمقربين من سلطان غرناطة،

الذين انقادوا وراء رغباتهم وطغى حب المال على ضمائرهم، ومن هؤلاء الوزراء الوزير ابو القاسم المليح، والوزير ابن كماشة، الذين اشتهروا بالجري وراء مصالحهم المادية والدنيوية دون الاكتراث بما يحيط بالمدينة من مخاطر تجعلها عرضة للسقوط بيد النصارى الاسبان في أي لحظة(عويس، ١٩٩٤م، ص٣١).

تظهر حيل النصارى واضحة في هذه المفاوضات التي جرت مع وفد مملكة قشتالة فرناندو دي ثافرا وفيها قدم الأخير وعود الملكيين فرديناند وايزابيلا للوزيرين أبو القاسم المليح ويوسف بن كماشة بالمكافأة المجزية لهما مقابل قيامهما بإقناع سلطان غرناطة وأهل الحل والعقد فيها بضرورة الاسراع بتسليم غرناطة(عويس، ١٩٩٤م، ص٣٢).

تعد حالة شراء الذمم ومنح الامتيازات من الحيل التي استخدمها النصارى الاسبان كسلاح مهم في السيطرة على المدن والبلدات الاسلامية في غرناطة، وهذا الامر تجاوز منصب الوزراء ليصل الى صمام الامان في المجتمع الغرناطي وهم العلماء والفقهاء، اذ استطاع مبعوث ملك قشتالة فرناندو دي ثافرا كسب جانب الفقيه البقيني الذي كان أحد المقربين من السلطان أبو عبد الله الصغير ومستشاريه، من خلال تقديم الوعود واغداق النعم عليه كونه من المقربين الى سلطان غرناطة نظراً لمكانته الدينية(عويس، ١٩٩٤م، ص٣٣-٣٤ ؛ عواجي، ١٤١٠هـ، ص٣٥٧).

تمثلت هذه الحالة في الانانية وتقديم المصالح الفردية على المصلحة العامة للمسلمين في غرناطة، الى تشجيع النصارى الاسبان الى شراء ذمم بعض الشخصيات المتنفذة في غرناطة والمقربة من سلطان غرناطة، من خلال بذل الاموال والمناصب لكسب جانبهم.

ومن الشواهد على ذلك ما تضمنته وثائق تسليم غرناطة من قوائم بالأعطيات التي منحها ملك قشتالة وأراغون فرديناند لسلطان غرناطة ووزيريه الخائنين بانه في اليوم الذي ينبغي تسليم الحمراء لملكي قشتالة وأراغون، يلتزم الاخير بتسليم الأمير والرهائن الذين معه، وتسليم مبلغ ثلاثين ألف مرافيدي لسلطان غرناطة وعشرة آلاف لابن كماشة ومثلها لأبو القاسم المليح، وكل هذه العطايا مكتوبة في شروط الاتفاقية بتسليم الحمراء بقواتها وأبوابها...(عويس، ١٩٩٤م، ص٣٥).

ان شروط التسليم والرسائل التي تبادلها الجانبين المتفاوضين بعيداً عن تطلعات سكان المدينة المغلوب على أمرها، تؤكد ان الامر كان بمثابة صفقة تجارية، تخضع للرشاوى المباشرة والهدايا المشبوهة سقطت على اثرها لآخر معاقل المسلمين في الاندلس في الثاني من ربيع الاول

٨٩٧هـ/٢ كانون الثاني ١٤٩١م بعد حكم دام لثمانية قرون(مؤلف مجهول، ٢٠٠٢، ص٤٢؛ المقري، ١٩٨٨م،ج٤، ص٥٢٥؛ ج. س. كولان، ١٩٨٠، ص١٣٨).

من خلال ما سبق يتضح جلياً ان هذين الوزيرين ليسوا بمعزل عن السياسة العامة في سلطنة غرناطة بل ساروا على نفس السياسة التي سار عليها سلطان غرناطة ابو عبد الله الصغير التي تقتضي الحصول على الامتيازات من قبل ملكي قشتالة وأراغون مقابل تفريطهم بآخر معاقل المسلمين في الاندلس.

الخاتمة

-ان تسليم غرناطة آخر معاقل المسلمين في الاندلس، تمثل في تنازلات قدمت من قبل سلطان غرناطة وبعض وزرائه مقابل شروط زائفة لم تُحترم لاحقاً، ولم تكن سوى حبرٌ على ورق، تظهر حقيقة النصارى الاسبان ونقضهم للعهود والمواثيق على مدى تواجد المسلمين في الاندلس، يلجأون الى الاتفاقيات والمعاهدات في حالات الضعف وينقضونها عندما يستعيدون قواهم.

-عمل النصارى الاسبان في الاندلس بمختلف طرق الحيل والمكائد، دون مراعاة لأي قيم أو أعراف في التعامل مع المسلمين وعقد الاتفاقيات معهم، فكانوا يعملون بمقتضى الغاية تبرر الوسيلة، فلم يدخروا جهدا أو وسيلة من شأنها انهاء الوجود الاسلامي في الاندلس دون استخدامها، حتى وان اقتضت تلك الوسائل التنصل من الوعود والمواثيق والايمان المقدس.

-ان بنود الاتفاقية التي عقدها فرديناند وايزابيلا مع سلطان غرناطة ابو عبد الله الصغير كانت بمثابة كمين أو فخ للإيقاع بالمسلمين في المدينة والاستيلاء عليها دون إراقة المزيد من الدماء كونها استعصت عليهم، لمنعة حصونها وشجاعة فرسانها في الدفاع عنها، فلجأت الى المكر والخداع والغدر، فوضعت شروطاً عريضة تنص على الحماية وحفظ النفس والاموال والممتلكات والمرونة في التعامل مع المسلمين، وحفظ العهود وأكدت على العيش الكريم في محاولة منها لتثبيط همم سكان المدينة في المقاومة واللجوء الى الاستسلام طالما ان في شروط التسليم ما يحفظ كرامتهم وانفسهم وأموالهم، ولم يعتبر أهل غرناطة بمصير المدن الاندلسية التي سقطت بيد النصارى فوقعوا في نفس الاخطاء التي وقع فيها سابقاتها من المدن الاندلسية الاخرين متناسين قوله تعالى : (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة....)

- لم تنطلي هذه الحيل والمكائد على عقلاء القوم وأشرافهم الذين كانوا على دراية بحقيقة النصارى الاسبان، بارتكاب العديد من المجازر بعد سيطرتهم على المدن والبلدات الاسلامية، والاساليب الوحشية في التعامل مع المسلمين الخاضعين تحت سيطرتهم، فكيف بنسر كاسر يتحول الى حمامة سلام بين ليلة وضحاها، فما هي الا حيلة ومكيدة انطلت على السذج من

عامة الناس وايدها الخونة والمنتفعين والمتواطئين من النصارى الاسبان، على رأسهم سلطان غرناطة ووزيريه ابو القاسم وابن كماشة، الذين احلوا دماء إخوانهم وعقدوا الصلح مع أعدائهم، فكانت هذه الاتفاقية من أعظم الحيل والمكائد التي خطط لها النصارى الاسبان تكفلت الايام بعدها بكشف حقيقتها.

-اضعاف الروح المعنوية للمقاومين والمدافعين عن غرناطة من خلال التفاوض واعطاء الوعود الكاذبة، الى جانب عقد المعاهدات السرية والمفاوضات الفردية لتحجيم دور المقاومة واضعاف الجبهة الداخلية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١- الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، ١٩٨٥م، بيروت

٢-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح البخاري، المكتبة السلفية، (القاهرة، ١٩٦٧م).

٣-السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(٩٠٢هـ) وجيز الكلام في الذيل على دولة الاسلام، تح: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة (بيروت، ١٩٩٥م).

٤-الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط، ط٨، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ٢٠٠٥م).

٥-ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت٧٥١هـ)،إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: محمد عبد السلام ابراهيم، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩١م).

٦-ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن كرم(٧١١هـ)، لسان العرب، دار المعارف، (القاهرة، د.ت).

٧-مؤلف مجهول(٩٠٠-١٠٠٠هـ)، آخر أيام غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، (دمشق، ٢٠٠٢م).

٨-المقري، أحمد بن محمد(ت١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، ١٩٨٨م).

٩-المقدسي، أبو عبد الله احمد بن محمد ابن قدامة، المغني، تح: طه الزيني، (القاهرة، ١٩٦٨م).

١٠-المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تح: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م.

ثانياً: المراجع

١١- أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الاندلس الى سقوط غرناطة، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٥٣م).

١٢-إيرفنج، واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، تر: هاني يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٠م.

١٣-الجارم، علي، قصة العرب في اسبانيا، مطبعة المعارف، ١٩٤٤م.

١٤-ج.س. كولان، الأندلس، تر: ابراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، ١٩٨٠م).

١٥-دوشاتو بريان، آخر بني سراج، تر: شكيب أرسلان، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٢٥م).

١٦-الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، دار المعرفة، (دمشق، ١٩٨٨م).

١٧-ذنون، عبد الواحد طه، حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة، دار المدار الاسلامي، (بيروت، ٢٠٠٤م).

١٨-طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، ط٣، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

١٩-عنان، محمد عبد الله، دولة الاسلام في الاندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٠-عويس، عبد الحليم، التكاثر المادي وأثره في سقوط الاندلس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢١-محمد الامين، محمد، الرحماني، محمد علي، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، د-ت.

ثالثاً: الرسائل والاطاريح الجامعية

٢٢-حبيب، بهاء موسى، دور غرناطة في مواجهة التحديات الاسبانية الشمالية(٦٢٩-٨٩٧هـ/ ١٢٣٢-١٤٩٢م)، رسالة ماجستير مقدمة الى مجلس كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٢م.

٢٣-عواجي، عبدة، الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الاندلس، رسالة ماجستير مقدمة الى مجلس كلية العلوم، جامعة الامام محمد بن سعود، الرياض، ١٤١٠هـ.

List of sources and references

First: sources

1. Al-Jurjani, Ali ibn Muhammad al-Sharif (d. 816 AH), Kitab al-Ta'rifat (The Book of Definitions), Library of Lebanon, 1985 CE, Beirut.

2. Ibn Hajar al-Asqalani, Ahmad ibn Ali (d. 852 AH), Fath al-Bari bi Sharh al-Bukhari (The Opening of the Creator with the Commentary on al-Bukhari), al-Maktabah al-Salafiyyah (The Salafiyyah Library), Cairo, 1967 CE.

3. Al-Sakhawi, Shams al-Din Muhammad ibn Abd al-Rahman (d. 902 AH), Wajiz al-Kalam fi al-Dhayl 'ala Dawlat al-Islam (A Concise Treatise on the Supplement to the Islamic State), ed. Bashar Awad Ma'ruf et al., Mu'assasat al-Risalah (The Message Foundation), Beirut, 1995 CE.

4- Al-Fayruzabadi, Majd al-Din Muhammad ibn Ya'qub (d. 817 AH), Al-Qamus al-Muhit, 8th ed., Al-Risalah Foundation, (Beirut, 2005 CE).

5- Ibn Qayyim al-Jawziyya, Muhammad ibn Abi Bakr ibn Ayyub ibn Sa'd (d. 751 AH), I'lam al-Muwaqqi'in 'an Rabb al-'Alamin, ed. Muhammad 'Abd al-Salam Ibrahim, Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, (Beirut, 1991 CE).

6- Ibn Manzur, Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Karam (d. 711 AH), Lisan al-'Arab, Dar al-Ma'arif, (Cairo, n.d.).

7- Anonymous author (900-1000 AH), The Last Days of Granada: A Summary of the Era in the History of the Nasrid Kings, ed. Muhammad Ridwan al-Dayah, Dar al-Fikr, (Damascus, 2002 CE).

8- Al-Maqqari, Ahmad ibn Muhammad (d. 1041 AH), The Fragrant Breeze from the Moist Branch of Andalusia and a Mention of its Minister, Lisan al-Din ibn al-Khatib, ed. Ihsan Abbas, Dar Sader, (Beirut, 1988 CE).

9- Al-Maqdisi, Abu Abdullah Ahmad ibn Muhammad ibn Qudamah, Al-Mughni, ed. Taha al-Zayni, (Cairo, 1968 CE).

10- Al-Manawi, Abdul Raouf, Al-Tawqif on the Important Definitions, ed. Abdul Hamid Saleh Hamdan, Alam Al-Kutub, Cairo, 1990 AD.

Second: References

11- Arslan, Shakib, A Summary of the History of Andalusia up to the Fall of Granada, Al-Manar Press, Cairo, 1953.

12- Irving, Washington, News of the Fall of Granada, translated by Hani Yahya Nasri, Arab Diffusion Foundation, Beirut, 2000.

13. Al-Jarim, Ali, The Story of the Arabs in Spain, Al-Maaref Press, 1944.

14. J.S. Colin, Andalusia, trans. Ibrahim Khurshid et al., Dar al-Kitab al-Lubnani, (Beirut, 1980).

15. Duchateau-Brian, The Last of the Banu Siraj, trans. Shakib Arslan, Al-Manar Press, Cairo, 1925.

16. Al-Dhanun, Abd al-Hakim, Horizons of Granada, Dar al-Maarifah, (Damascus, 1988).

17. Dhunun, Abd al-Wahid Taha, The Arab Islamic Resistance Movement in Andalusia After the Fall of Granada, Dar al-Madar al-Islami, (Beirut, 2004).

18. Taqush, Muhammad Suhayl, History of the Muslims in Andalusia, 3rd ed., Dar al-Nafais for Printing, Publishing and Distribution, Beirut, 2010.

19. Anan, Muhammad Abdullah, The Islamic State in Andalusia, Maktabat al-Khanji, Cairo, 1997.

20. Awais, Abdul Halim, Material Proliferation and its Impact on the Fall of Andalusia, Dar Al-Sahwa for Publishing and Distribution, Cairo, 1994.

21. Muhammad Al-Amin, Muhammad, Al-Rahmani, Muhammad Ali, Al-Mufid fi Tarikh Al-Maghrib (The Useful in the History of Morocco), Dar Al-Kitab, Casablanca, n.d.

Third: University Theses and Dissertations

22- Habib, Bahaa Moussa, The Role of Granada in Confronting the Northern Spanish Challenges (629-897 AH / 1232-1492 AD), Master's Thesis submitted to the Council of the College of Arts, University of Kufa, 2002 AD.

23- Awaji, Abda, Political Disputes in the Nasrid State and Their Role in the Fall of Andalusia, Master's Thesis submitted to the Council of the College of Science, Imam Muhammad ibn Saud University, Riyadh, 1410 AH.